الحياة الأبدية

للأنبا مكاريوس – الأسقف العام

أولاً : مقدمة عن الحياة الأبدية

عندما كنا نسمع عن الدينونة و الأبدية أو نفكر فيهما و نحن فى حداثتنا , كنا نُسر إذ تمر فى مخيلتنا روائع المناظر و شتى مظاهر المتعة , ثم ما لبثنا أن دخلنا فى فترة المراهقة فإذا بالتفكير فى مثل تلك الأمور ينتابنا معه قشعريرة و خوف من المجهول , لاسيما بعد أول واقعة وفاة حدثت لشخص نعرفه .

أمور كثيرة كانت تؤرقنا من جهة الحياة الأبدية مثل مسألة اللانهاية و ماذا تعنى , و كذلك الدينونة و التى كانت تثير فينا الرعب , حالما تتمثل أمامنا النار و العويل و وجه الله الغاضب أمام الأشرار ثم العذاب الدائم .

و ظلت فكرة القيامة العامة و الحياة الباقية تشغل أفكار الجميع , فهى حياة لم يختبرها أحد من قبل ليروى لنا عنها أو يصفها , و فى المرة الوحيدة التى صعد فيها إنسان و رآها , حتى هذه الخبرة و للأسف الشديد لم يجد صاحبها من الأمور الأرضية و مفردات اللغات البشرية ما يعينه على وصفها أو تشبيهها , فقال " وَسَمِعَ كَلِمَاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا، وَلاَ يَسُوغُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا. " (2 كو 12 : 4) و بتعبير آخر " مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ " (1 كو 2 : 9) و المقصود بهذا هو أن أجمل ما رأته عين بشرية فى هذه الحياة يقصر فى الواقع عن أن يعكس المجد الذى هناك , و هكذا أجمل ما سمعته إذن أو ما تخيله قلب لا يرقى مطلقاً إلى ذلك الفرح و المجد العتيد أن يستعلن فى البشرية عندئذ .

إذن فالحياة الأبدية و كما خبرها معلمنا بولس الرسول للحظات أو لدقائق ربما , كانت أروع من أن يعبر عنها , و عندما أراد القديس يوحنا الرسول أن يصف أورشليم السمائية , بحث هو الآخر فى أرضنا و عالمنا الترابى فلم يجد سوى الأحجار الكريمة ليصف بها ذلك المجد مثل : " يشب .. جمشت .. زمرد ذبابى .. إلخ " و مع ذلك فهذه أرضية ترابية و أما تلك فأبدية باقية .

ثم تدرجنا قليلاً قليلاً بخصوص تناولنا لفكرة الأبدية حتى وصلنا إلى تصوّر أفضل , ألا و هو ما عبر عنه أيوب الصديق قائلاً " هُنَاكَ يَكُفُّ الْمُنَافِقُونَ عَنِ الشَّغَبِ وَهُنَاكَ يَسْتَرِيحُ الْمُتْعَبُون. الأَسْرَى يَطْمَئِنُّونَ جَمِيعاً. لاَ يَسْمَعُونَ صَوْتَ الْمُسَخِّرِ. الصَّغِيرُ كَمَا الْكَبِيرُ هُنَاكَ وَالْعَبْدُ حُرٌّ مِنْ سَيِّدِهِ." (أى 3 : 17 - 19) و آدركنا بالتالى أنها حياة تتسم بالكمال , ثم أدركنا أخيراً أن الحياة الأبدية هى الله ذاته , و أنه فى معرفته (بالمسيح يسوع ابنه) معرفة لهذه الحياة " وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ. " (يوحنا 17 : 3) .

إن الله هو الهدف المشترك ما بين الحياتين , هو مصدر كل فرح و طمأنينة , و لعل ذلك يفسر قول المخلص " لأَنْ هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ " (لوقا 17 : 21) و ذلك فى رده على سؤال الفريسيين له عن موعد الملكوت و متى يأتى , و إن كانت الحياة الأبدية عبارة عن كتاب فإن هذه الحياة التى نحياها الآن يجب أن تكون مقدمة هذا الكتاب , فى هذا يقول القديس يوحنا سابا المعروف بالشيخ الروحانى " *لا دخول إلى ذلك البلد , بلد نور الأنوار و عالم أبد الآبدين لمن لم يختبره منذ الآن , فلا يقدر أن يرتاد ذلك البلد من لم يعتده من هنا , إذ تعانى عين بصيرته من الغشاوة حينذاك بأشعة نور الغمام الخارج من هناك ليتنعّم به , فإنه حالما تغرب عن عينه شمس العالم يقسم ميراثه و يرحل لملاقاة الشمس العظيمة بنور العوالم العلوية* " [1] .

غير أن التفكير فى الأبدية و الدينونة يفقد مع الوقت تأثيره , مثل ما يحدث عند انتقال أحد الأشخاص إذ سريعاً ما تهدأ المشاعر و ينصرف الناس إلى شئونهم ناسين أو متناسين الرسالة الروحية التى تركها بوفاته .

و قد كان المؤمنون فى أول عهدهم بالإيمان مثقلون بفكر إسكاتى (آخروى) حيث كانت المناداة فى الوعظ و الإرشاد تلحّ بأن المسيح على الأبواب .. و لن يبطىء , و يؤكد معلمنا بولس الرسول لهم ذلك بقوله " نَحْنُ الَّذِينَ انْتَهَتْ إِلَيْنَا أَوَاخِرُ الدُّهُورِ. " (1 كو 10 : 11)

---

1 القديس يوحنا الدلياتى 1 / 3

و شاع تداول تعبير مارانا ثا [2] للإشارة إلى اللهفة الشديدة إلأى مجيء الرب , و كان هذا النداء ينعش المؤمن و يجدد فيه الرجاء . هذا و قد نما بقوة الإعتقاد بظهور الرب الوشيك , فباع الكثيرين ممتلكاتهم و قاموا بتوزيع أثمانها و صعد بعضهم إلى أسطح منازلهم راكعين و هم باسطون أيديهم نحو العلاء مرددين " نَعَمْ! .. آمِينَ. تَعَالَ أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ." (رؤيا 22 : 20) .

و قليلاً قليلاً و لأن يوم الرب يأتى كلص , و شعر البعض بأنهم انتظروا طويلاً , فقد تحرّك الشك فى قلوبهم من جهة مجيء الرب , و كتب معلمنا بولس الرسول يشجع مثل أولئك , فى رسالته إلى العبرانيين . و يلاحظ أن تعبير " وَفِيمَا أَبْطَأَ الْعَرِيسُ نَعَسْنَ جَمِيعُهُنَّ وَنِمْنَ. " (مت 25 : 5) . يجب أن يُفهم على أن العذارى قد ملّوا الإنتظار فناموا , لا أن الرب أبطأ , فهو آت فى الوقت المحدد من جهته و لن يعقه أحد !! .
ثم إنتهز قوم أردياء ذلك فشككوا فى الأمر برمته , إلى هذا أشار القديس بطرس قائلاً " أَنَّهُ سَيَأْتِي فِي آخِرِ الأَيَّامِ قَوْمٌ مُسْتَهْزِئُونَ، سَالِكِينَ بِحَسَبِ شَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ، وَقَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ مَوْعِدُ مَجِيئِهِ؟ لأَنَّهُ مِنْ حِينَ رَقَدَ الآبَاءُ كُلُّ شَيْءٍ بَاقٍ هَكَذَا مِنْ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ». "
(2 بط 3 : 3 - 4) .

و يجب الإنتباه إلى أنه قد لا يأتى المسيح (أقصد المجيء الثانى " الباروسيّا ") هذا اليوم أو هذه السنة , و لكن الكثيرون سيذهبون إليه عندما ينحلّون من هذا الجسد , و من هنا يجب الإستعداد دائماً .

2 التعبير فى الأصل يأتى " مارانا ثا " Marana tha و هى رة أرامية قديمة , استخدمتها الكنيسة منذ البداية للإشارة إلى مناداة الرب , أو الحضور الإلهى , أو الرجاء بتمام الأزمنة و مجيء الرب (1 كو 16 : 22) .

الحياة التى نحياها الآن

للحياة ثلاثة مظاهر , الأول الحياة فى الجسد و الثانى الحياة المتوسطة ما بين الموت الجسدانى و يوم الدينونة العامة (فى الفردوس أو الجحيم) و الثالث هو الحياة الأبدية و التى تبدأ بيوم الدينونة و لا تنتهى أبداً , و أما عن الحياة التى نحياها الآن فهى التى وهبها الله لنا لكى نستمتع بأعماله و نفرح بخلقته , ثم نعمل و نعين الآخرين و خلال هذا و ذاك نستعد للسفر البعيد فى الأبدية برفقة الله .

و قد خلق الله الإنسان بعد أن أعد له جميع ما يحتاج إليه , و جعل تمايزاً بين الفرد و الآخر حتى يكملوا بعضهم بعضاً . هذا و يولد الإنسان كاملاً يملك إمكانية الحياة و الرقى و التميز , كما أن الله يرافقه فى مسيرته و لا يتخلى عنه , بل حتى الذين يعانون من الإعاقة الجسدية أو النفسية أو الذهنية , لن تحول إعاقتهم دون دخول الملكوت و الذى هو أهم بكثير من بضع عشرات من السنين يحياها الإنسان هنا , و فى المقابل ليس هناك فى الحياة الأبدية أية إعاقة .

و علينا أن نتذكر دائماً أنه لا يوجد شىء ثابت فى هذه الحياة , بل كل شىء و كل إنسان قابل للتطور و التغيّر , فإن الناس أنفسهم تبدأ حياتهم بطفولة بريئة ملائكية يعقبها فترة الصبا ثم البلوغ فالشباب فالرجولة ثم الكهولة و أخيراً الشيخوخة و التى ما أن تحلّ حتى ترى الإنسان و كأنه بات ينتظر رحيله عن هذا العالم , بعد أن تثقل بالمرض و كدّس الخبرات التى تؤكد بأن كل شىء إلى زوال , و شتان ما بين وقت كان فيه الإنسان مقبلاً على الحياة لا تسع طموحاته , و بين إدباره و إدارة ظهره لها آسفاً . و كثيرين منهم يشتهون الموت , بعد أن ثقل عليهم هذا الجسد و هجرهم الأكثرين و تنكر لهم الأقربين الأقربين فأضجرتهم الوحدة .

و حتى المبانى الفخمة الشاهقة ما هى إلاّ سنوات ثم تحتاج إلى ترميم و صيانة و إلى إزالة أحياناً , و حتى مشاعر الناس ليست ثابتة , و الأموال غير مضمونة , الطقس غير ثابت , الليل و النهار و الزمن , و غيرها من شتى مظاهر الحياة و أدواتها , من هنا فإن من يربط حياته بشىء من هذا فإنه يفنى معها , و من يربط حياته بإنسان هنا فإنه يخاطر بمستقبله ,

لا تتكلوا على الرؤساء و لا بنى البشر . تخرج روحهم فيعودون إلى ترابهم فيعودون إلى ترابهم (مزمور 146 : 4) و أما الحكيم فهو ذاك الذى يربط حياته بالمسيح فيضمن مصيره . و لعل هذه الفكرة هى التى دفعت القديس أرسانيوس إلى ترك البلاط الملكى و الإتجاه إلى الأسقيط , إذ قال أن كل ما نراه سوف يتلاشى مثلما ينحلّ المنام و الأفضل للإنسان أن يصنع خيراً يجده قدامه , هكذا يؤكد معلمنا بولس الرسول " إِنْ كَانَ لَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فَقَطْ رَجَاءٌ فِي الْمَسِيحِ فَإِنَّنَا أَشْقَى جَمِيعِ النَّاسِ. " (1 كو 15 : 19) .

إن العاقل هو من يشترى أبديته عن طريق احتقاره لأباطيل العالم , و تخيله عن اللذات العابرة و الشهوات الوقتية , إذ بذلك يقتنى له نصيباً فى المجد , بينما الجاهل هو ذاك الذى يبيع أبديته بمثل هذه التفاهات , فأهداف بعض الناس عند أقدامهم , و البعض الآخر على بعد خطوات منه , و أما المجاهدون و الذين انفتحت أعينهم على الأبدية , هؤلاء جعلوا أهدافهم هناك فى الأفق البعيد .

إن أخطر قضية فى حياة الإنسان هى أبديته , من أجلها يضحى بكل شىء و فى سبيلها يصنع أى شىء " لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطِي الإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟ " (متى 16 : 26) و هكذا يتجاوز الإنسان الخطيئة و زمنها مادام معنياً بخلاصه مشغولاً بأبديته و التى هى أبعد ... من هنا يستثمر الإنسان الروحى هذا الزمان لكى يكنز له كنزاً فى السماء , و عن طريق تحويل كل ما هو بين يديه إلى رصيد أبدى حيث لا يفسد سوس و لا يبلى صدأ (مت 6 : 19 , 20) تماماً مثل إنسان يحول أمواله من بلد لآخر أكثر أمناً , و لعل المقصود بـــ " مُفْتَدِينَ الْوَقْتَ " (أف 5 : 16 , كو 4 : 5) .

يروى القديس يوحنا الدمشقى هذه القصة الرائعة فيقول :

كان لإحدى المدن عادة غريبة و هى أن يبقى فيها الملك سنة واحدة , يُقبض عليه فى نهايتها ثم يقيد ليُنفى فى جزيرة بعيدة , و ذلك بعدما يلاقى الكثير من ألوان السخرية و الهوان , و بعد ذلك تتاح الفرصة لمن يود أن يكون ملكاً بعده دون قيد أو شرط سوى تلك النهاية الحتمية التى لاقاها جميع الملوك السابقين , و لعل الحكمة من ذلك كانت تحسّب

الحاكم جيداً لتلك النهاية فيسلك بحكمة و قناعة , غير أن جميع الأشخاص الذين تبؤا ذلك العرش غفلوا هذه الحقيقة إلى أن فوجئوا بأنفسهم فى مواجهة معها .

إلى أن جاء ملك جديد حكيم , فما أن بدأ فترة ولايته حتى جعل كُلّ إهتمامه هو تحويل خيرات تلك المدينة إلى هذه الجزيرة التى ينفى إليها الملوك عادة , فشيد القصور و غرس الحدائق , و أقام مختلف المرافق , و مازال يعمل طوال العام حتى إذا أزف اليوم المعين و الذى يلاقى فيه الملوك مصيرهم , فإذا به يتحرّق شوقاً إلى مغادرة مدينته إلى ذلك الفردوس الذى ينتظره .

و لاشك أن القديس يوحنا الدمشقى كان يقصد من وراء هذا التصوير البديع حال الناس هنا و عدم تحسبّهم للنهاية الطبيعية للحياة الأرضية .

و لعلّ الغنى الموصوف بالغباء , لم يفعل شيئاً يستحق عليه اللوم , غير أنه فى المقابل لم يفعل شيئاً يستحق عليه المكافأة , و هذا الغنى فى الواقع يمثل شريحة عريضة من الناس , ليس داخل إطار الغنى و المال فحسب , و إنما من حيث أن آمالهم تنتهى عند القبر , و هم فى ذلك مخطئون على مستويين , فإن الحياة لن تنتهى عند القبر , و إنما هناك حياة أبدية , حيث سيُجازى كل شرير عن شره بينما يكافأ كل بار عن جهاده , و لكن و حتى إن كانت الحياة تنتهى كلية عند القبر , فلماذا لا ينتبهون لتلك الحقيقة , إن كانوا سوف يتساوون فى القبر مع بقية الناس فقراءا مع أغنياء و عظماء مع مرزولين . لذلك يقول القديس أمبروسيوس " *إن أحضان الفقراء و بيوت الأرامل و أفواه الأولاد (الأيتام) هى المخازن التى تبقى إلى الأبد* " و ننتبه أنه لم تكن مصادفة أن يأتى حديث السيد المسيح عن نهاية العالم و الدينونة عقب مشهد الأرملة و هى تلقى الفلسين فى الخزانة بالهيكل (الإصحاح 21 من إنجيل القديس لوقا) فزهد هذه الأرملة فى الحياة الحاضرة دفعها للتضحية بكل ما تملك , و قد كان فى ذلك إستثمار منها للقليل مقابل حياة لا تفنى , كذلك فإن الكعكة الصغيرة – التى صنعتها أرملة صرفة صيدا لإيليا النبى – قد أبقت على حياتها و حياة ولدها (ملوك أول 17) .

الموت الجسدانى

هنا و نحن على الأرض ماتزال الفرصة متاحة لمراجعة النفس و التراجع عن الطرق الشريرة , هنا توبة و غفران .. هنا تسامح من قبل الله و طول أناة , و لكن هناك فى المقابل ليس رحمة لمن لم يستعمل الرحمة , فإنه ليس فى الموت من يذكر و لا فى الجحيم من يشكر و هكذا و مادمنا أحياء فالفرصة ماتزال متاحة , و الذى يستطيع الإنسان تحقيقه اليوم قد يكون من الصعب عليه تحقيقه فى الغد , فاليوم أنسب و هذه الظروف هى أنسب الظروف , كما أن الناس عند الموت يؤخذون – عادة – عُنوة : بمعنى أن كل إنسان كان يتوقع عمراً أطول و فرصاً أكثر , حتى بالنسبة لأولئك الذين يعانون من أمراض ميئوس من شفائها , و فى المقابل فإن الذين عرفوا موعد نياحتهم مسبقاً , حتى هؤلاء لم يكونوا فى الواقع فى إحتياج لمعرفته ! لقد كانوا قديسين و مستعدين , و لكن و لربما عرفوا ذلك حتى يفرحون أو يوصون أولادهم .

هذا و قد ورثت البشرية عن آدم الموت الجسدانى – حتى بعد الفداء – ليظل ذلك مرتبطاً بالطبيعة الجسدية لنا , و حتى يكون الموت بمثابة نقطة الإنطلاق للحياة الأبدية و ليكون مثل الجسر الذى يربط بين الحياتين , يشير إلى ذلك معلمنا بولس الرسول قائلاً " مُفْتَدِينَ وَكَمَا وُضِعَ لِلنَّاسِ أَنْ يَمُوتُوا مَرَّةً ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الدَّيْنُونَةُ، " (عب 9 : 27) .

و فى مثل العذارى نلاحظ أن جميعهن : حكيمات و جاهلات , قد ذقن الموت الطبيعى , و قد عُبر عن ذلك بالقول " وَفِيمَا أَبْطَأَ الْعَرِيسُ نَعَسْنَ جَمِيعُهُنَّ وَنِمْنَ. " (مت 25 : 5) و بالتالى فإن الصراخ المعلن بمجىء العريس : أن هو إلاّ مجىء المسيح و إعلان الدينونة , حيث يتوجب على الجميع القيام لملاقاته و تقديم حساب الوكالة " أَيُّ إِنْسَانٍ يَحْيَا وَلاَ يَرَى الْمَوْتَ؟ " (مز 89 : 48) .

يوم الدينونة

لعل أكثر ما سوف يميّز يوم الدينونة هو أنه سيكون يوم مفاجآت , إذ يُفاجأ الحشد الضخم بكثير من العظماء و أصحاب الأسماء و النفوذ و السلطان فى شتى المجالات , يتهاوون فى لحظة بينما يرتفع المتضعون من المنبوذين و المرزولين و المحتقرين و المهشمين و الذين فى الظل , و سيتضح كيف أن الكثيرين قد نالوا أجرهم و أستوفوا خيراتهم و هم مايزالون فى العالم , و أن الوقت قد حان لإكرام أولئك الذين عاشوا مظلومين و ماتوا مظلومين و لم يسمع لهم أحد " وَلَكِنْ كَثِيرُونَ أَوَّلُونَ يَكُونُونَ آخِرِينَ وَآخِرُونَ أَوَّلِينَ " (مت 19 : 30) . إن الفجوة ما بين الغنى و لعازر ماتزال موجودة حتى بعد الموت كما كانت فى هذه الحياة و لكن الفرق هو أنه لا يمكن الآن تخطيها بأى حال , بل أن الذى كان بالأمس محتقراً مرزولاً و متروكاً , آن له أن يجلس فى رأس الوليمة (حضن إبراهيم) [3] .

الفصل بين الفريقين

عندما أغلق الباب (فى مثل العذارى) فقد فصل فى الواقع بين فريقين , فلا الذين هم فى الخارج يستطيعون الدخول , و لا الذين فى الداخل يمكن أن يهلكوا أو يرجعون إلى الخارج , أى أن التوبة لن تفلح و لن تقبل بالنسبة لمن هم فى الخارج (العذارى الجاهلات) كما أنه لا مكان فى الداخل لإغراء أو تضليل إذ قد خلصوا , و لعل التعبير الوارد فى (مت 12 : 32) عن المجدف على الروح القدس أنه " لَنْ يُغْفَرَ لَهُ لاَ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي. " لا يعنى إمكانية الغفران هناك , و إنما عدم الغفران مطلقاً .

و يرسم لنا حديث الراعى الصالح فى (يوحنا 10) صورة أخرى لهذا الفصل بين الفريقين عندما أشار السيد المسيح إلى نفسه قائلاً : " أَنَا بَابُ الْخِرَافِ. " (يوحنا 10 : 7) , لقد أستخدم السيد المسيح صورة مألوفة لمستمعيه – و كثيرين منهم يعملون فى الرعى – فقد

---

3 كانت المتكأت فى الولائم فى أيام السيد المسيح عبارة عن أرائك منخفضة تأخذ شكل حرف U و كان المتكىء يمد رجليه بعيداً , فإذا كان ضيف الشرف أو كبير العائلة متكئاً فى رأس المائدة فالذى يجلس متكئاً إلى جواره مباشرة يمد رجليه بعيداً فى الإتجاه الآخر بينما رأسه تلامس صدر أو حضن السيد , هذا يفسر لنا كيف اتكأ يوحنا الحبيب برأسه على صدر المسيح طوال العشاء , و هكذا كان لعازر فى حضن إبراهيم كما ورد فى مثل الغنى (متى 13) .

كانت هناك حظائراً محاطة بسياج تبيت فيها الأغنام بينما كان باب الحظيرة عبارة عن فتحة دون بابُ و كان الراعى ينام ليلاً بجوار عصاه على هذه الفتحة , فإذا ما جاء الذئب ليلاً ليدخل كان عليه أن يواجه الراعى الذى يرده على أعقابه , و إذا حاولت إحدى الغنمات الخروج منعها الراعى أيضاً , و بهذا فإن الله (و هو راعى الخراف) فصل بين الفريقين !! .

فى يوم الدينونة سيكون الفصل , من خلال كلمة تخرج من فم السيد المسيح و الذى أعطى أن يدين , قوية كالسيف مرعبة كالرعد , و بقدر ما تكون هذه الكلمة مثل صيحة النصر للبعض , فإنها ستكون هى هى صرخة الرعب لآخرين , و هكذا يفصل بين الفريقين فى لحظة , دون أن يكون هناك مجالاً للتأجيل أو المرافعة أو الترجى أو الإستئناف !! .

و يتوجب على الجميع المثول قدام كرسى المسيح , و تتم الدينونة فى لحظة فى طرفة عين, ليس فقط لأن يوم واحد عند الرب كألف سنة و ألف سنة كيوم واحد , و إنما لأن كل إنسان سيعرف مصيره و درجته بمجرد النظر فى وجه المسيح , مثل مرآة يظهر من خلالها كل شىء , و لن يستطيع إنسان ما أن يتملّص من العقوبة , يقول أحد الأباء لتلاميذه : " *إن البهائم أفضل من الإنسان الخاطىء , أجابوه حاشا يا أبانا , و لكنه قال لهم : نعم لأن البهائم ليست لها دينونة !* " " لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنَّنَا جَمِيعاً نُظْهَرُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ، لِيَنَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مَا كَانَ بِالْجَسَدِ بِحَسَبِ مَا صَنَعَ، خَيْراً كَانَ أَمْ شَرّاً. " (2 كو 5 : 10) .

بِرّ الإنسان لا ينفع أخيه

فى ذلك اليوم لا يقدر إنساناً أن يشفع فى آخر , أو يهبه بعضاً من بره أو نصيباً فى الملكوت , لأنه مكتوب أنه يجازى كل واحد حسب أعماله (حسبما يكون عمله) هكذا تهتف الكنيسة فى القداس الإلهى مستنجده برحمة الله من سوء الأعمال و فقرها :

" كرحمتك يا رب و ليس كخطايانا "

إن ذلك يشبه أحد طلبة الثانوية العامة و الذى حصل على مجموع 95 % , غير أن صديقاً أو قريباً له لم يحصل فى نفس العام إلا على 75 % فقط , فدفعته حينئذ الشهامة ليصحبه إلى مكتب التنسيق و ليطلب من القائمين هناك تحويل عشر درجات من نصيبه إلى نصيب قريبه ليتسنى لهما الإلتحاق بكلية واحدة , و لكن الموظف يستنكر ذلك بشدة , فيتعجب الطالب المتفوق كيف ينكرون عليه ذلك و هو صاحب المجموع , فيجيبه نعم أنه مجموعك و لكن حر التصرف فيه , قد يمكنك الإلتحاق بكلية أقل و لكنه هيهات أن تضيف شيئاً إلى طالب آخر !! .

و سئل القديس باسيليوس ذات مرة عما إذا طلبت أم من الله فى الحياة الآتية أن يدعها مع ابنتها أو يجعل إبنتها معها , و لنفترض أن الأم ماضية إلى المجد بينما ابنتها إلى العذاب و هما اللتان لم تعتادا الفراق حينما كانتا فى الأرض , و قد يرفض الطلب فتعود الأم لتقترح أن تذهب هى إلى العذاب مع ابنتها فيرفض الطلب أيضاً , و يتحتم على كل منهما البقاء فى الموضع الذى ستُكافأ فيه أو تُجازى .

أجاب القديس بأنه لا وجود هناك للعواطف البشرية كما عرفناها و عشناها , و لا يوجد هناك زوج و زوجة أو أب و إبنه أو أخ و أخته ... إلخ , و إنما هناك سيكون الإنسان فحسب , مجرداً من كافة الفروق النوعية , إلى هذا أشار السيد المسيح فى رده على الصدوقيين عمن ستكون له زوجة , تلك التى تزوجت بسبعة أشقاء و لم تنجب منهم , قائلاً " ... لأَنَّهُمْ فِي الْقِيَامَةِ لاَ يُزَوِّجُونَ وَلاَ يَتَزَوَّجُونَ بَلْ يَكُونُونَ كَمَلاَئِكَةِ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ. " (مت 22 : 30) .

هل تتفق دينونة الله للناس مع محبته للبشر ؟

يتساءل البعض إن كانت الدينونة و الحكم بالتالى على البعض بالهلاك الأبدى , تتفق و محبة الله و كثرة رأفاته ؟ , و كيف سيتحول الله الوديع و الحمل الصامت إلى صورة أسد مزمجر ؟ . و لكن علينا ألاّ نتصوّر الله فى يوم الدينونة و كأنه يقتصّ لنفسه من الأشرار ! حاشا , فالله محب , كما أنه لا يُسّر بهلاك أحد , و فى المقابل فإنه لن يهلك إلاّ ابن الهلاك " ..... الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ابْنُ الْهلاَكِ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ. " (يوحنا 17 : 12) فإن النار الأبدية هى المستقر الحتمى للأشرار , كما أن الملكوت هو المكافأة الطبيعية للأبرار .

إن الله سيدين الناس بحسب القوانين و الوصايا التى وضعها لهم , غير أنه سيراعى فى الدينونة حجم الخطية و ليس نوعها فقط , فالخطية بالفكر ليست كالخطية التى بالفعل , و الخطية التى يرتكبها الإنسان فى حق نفسه تختلف عن تلك التى يرتكبها فى حق الآخرين , و التى يصنعها بكامل إرادته ليست كتلك التى إرادته غير كاملة فيها , و تلك التى لا إرادة له فيها أصلاً , هكذا يقول الكتاب إن الله سيجازى كل واحد بحسب أعماله , و لكن الله رحيم فى عدله و عادل فى رحمته . إن عدل الله يقتضى بأن يُعاقب الشرير .

روى لى أحد الأباء عن شاب تقابل معه منذ سنوات و كان يبكى , فلما سأله الأب عن سبب بكاءه عرف منه أنه رسب فى امتحانات الثانوية العامة , و هنا سأله الأب إن كان قد ذاكر و أجاب جيداً أم لا ؟ فأجاب بالنفى , و هنا قال له الأب : أتظن أن الله يكون عادلاً إذا أنجحك و لم تجتهد !! .

إن الله يريد منا أن نجاهد قدر استطاعتنا , لقد سأل الرب واحداً بخصوص إيمانه فقال " أُومِنُ يَا سَيِّدُ فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي" (مرقس 9 : 24) حيث يُلاحظ أن إيمان الرجل كان من الضآلة بحيث يقترب من العدم , و مع ذلك فقد أجابه الرب إلى طلبه و شفى له ابنه . فمن جهة حنو الله فإنه حنون , غير أن خطايا الإنسان هى التى تقوده للعقاب , و أما من جهة عدله فكيف يساوى الله بين المجاهد البار و الخاطىء الشرير ! " وَمَتَى جَاءَ ابْنُ

الإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ مَعَهُ فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. وَيَجْتَمِعُ أَمَامَهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ فَيُمَيِّزُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يُمَيِّزُ الرَّاعِي الْخِرَافَ مِنَ الْجِدَاءِ فَيُقِيمُ الْخِرَافَ عَنْ يَمِينِهِ وَالْجِدَاءَ عَنِ الْيَسَارِ. ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ. " (متى 25 : 31 - 34) .

الملكوت

كانت فكرة الأبدية و اللاّنهائية , و ماتزال , تؤرّق الكثيرين و لا يجدون لها تفسيراً شافياً فقد تعود الناس على التغيير فى حياتهم , بل حتى الحياة نفسها تتغير إلى حياة أخرى بالموت , فكيف سيحيون إلى ما لا نهائية فى نفس المكان و مع الشخصيات ذاتها و بنفس البرنامج ؟ . إلى أن تجسد ابن الله و فتح دائرته على دائرة البشر و فتح بصائرهم , و أعطى الخلاص مفاهيماً جديدة للحياة و قيمة هائلة للإنسان , و وجدت البشرية فى شخص الرب يسوع ردوداً و حلولاً لجميع معضلاتها .

إن السرمدية (الأزل و الأبد) عموماً أمراً يفوق العقل البشرى المحدود و حساباته و منطقه القاصر , إذ كيف تستوعب حفرة ضيقة بحراً من المياه أو محيطاً ! هكذا الإنسان المادى الترابى ما لم يرتفع فوق مستوى الإهتمامات الزمنية فكيف يمكنه استيعاب هذه العطية .

و لعل أبرز ما يتبادر إلى الذهن سريعاً بخصوص الحياة القبلة هو **الملل** – كما أشرنا – و الذى هو كفيل بهدم لذتها , كما أن التفكير فيه يثير العديد من الأسئلة و التى لا جواب شافى لها (هنا) , و لكن الملل لن يكون له وجود هناك بالطبع , و السبب أن عامل الزمن سيكون منعدماً فى الحياة الأبدية , فليس هناك وقتاً بالمعنى الذى خبرناه هنا , لا مجرات و لا كواكب و لا دورات طبيعية كما هو الحال الآن مما ينتج عنه تعاقب الليل و النهار و الفصول و السنين و ما إلى ذلك , " أَنَّ يَوْماً وَاحِداً عِنْدَ الرَّبِّ كَأَلْفِ سَنَةٍ، وَأَلْفَ سَنَةٍ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ. " (2 بط 3 : 8) اليوم بالنسبة لساكنى النار الأبدية يمر كألف سنة فى حين أن

الألف سنة بالنسبة لأهل الملكوت تمر كيوم واحد , و نعرف أن الوقت يمر سريعاً بينما يمر ببطء فى أوقات المحن .

ثم أنه من ذا الذى يسكن بحضرة المسيح دون أن يُسلب لبّه , و يسبى بهذا المجد و هذا الحضور الإلهى . إنه فرح " لاَ يُنْطَقُ بِهِ وَمَجِيدٍ، " (1 بط 1 : 8) و يقول القديس أغسطينوس " *إن مكافأة الله للأبرار هى إعطاءه ذاته لهم* " .

فى بيت أبى منازل كثيرة

فى مثل افعلة و الكرم (متى 20 : 1 - 16) نلاحظ أن صاحب الكرم أعطى جميع العاملين على مختلف مواعيد التحاقهم بالكرم ديناراً ديناراً , و إن كان هذا الأمر يشير فى الأساس إلى عطية الخلاص التى وهبت للأمم و التى قبلت الإنجيل متأخراً , إلاّ أنها تعنى أيضاً أن جميع البرار سيوهبون الوجود فى الحضرة الإلهية كأساس للمكافأة , أى التواجد الأبدى مع الله فى ملكوته , ثم يتبقى بعد ذلك تمايز النجوم و المنازل " فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ " (يوحنا 14 : 2) .

و لنعد إلى التقليد و شهادة المؤرخين و التلمود فى مقدمتها لنرسم صورة أرضية فى محاولة لفهم هذا التنوع [4] . فقد كان الهيكل هو نقطة تلاقى الله مع الشعب , و قد كان بحق – كما هى الكنيسة الآن – أيقونة الملكوت , و لعلّ أكثر التشبيهات التى استخدمها القديس يوحنا اللاهوتى فى وصفه للملكوت – بحسب الرؤيا التى رآها فى بطمس – هى فى الواقع مقتبسة من الهيكل اليهودى فى ذلك الوقت .

و فى زمن الفصح كان عدد اليهود الذين يتواجدون فى أورشليم للإشتراك فى الإحتفالات , يصل إلى ثلاثة ملايين إنسان , بينما تسع المدينة فى العادة لمئتين و خمسون ألفاً فقط , و من هنا فقد كانت الحاجة ماسة لإقامة المزيد من المبانى و المساكن و الخيام لإستيعاب الزائرين , و هكذا كان الفصح موسماً سياحياً هاماً بالنسبة للسكان , يؤجرون منازلهم و

4 لابد من الإستعانة بالرموز للإشارة إلى ما لا يستطاع التعبير عنه لا بالفكر و لا الخيال .

سطوحها و يؤجرون الخيام و يبنون النزل السياحية الصغيرة , و كانت المساكن السريعة التجهيز منتشرة بشكل ملفت فى الطرق و الساحات فى ذلك الموسم الهام .

و من ثم فقد قرر القائمون على الهيكل إستغلال مساحة منه ليبنوا منازلاً لإقامة الوافدين , و قد تم بالفعل بناء شرائح مختلفة من تلك المنازل بما يتناسب مع الطبقات المختلفة , ما بين القصور الصغيرة و التى بنيت مقابل القدس مباشرة يعقبها مساكن فاخرة و من خلفها مسكناً أقل فخامة و هكذا حتى يصل الأمر إلى صفوف من الخيام بما يتناسب مع فقراء الزائرين , و بينما كان هؤلاء يتسابقون إلى الإقامة فى الهيكل , فقد كان للأغنياء منهم و ذوى الحيثية الفرصة للإستمتاع بأكبر قدر , من خلال السكنى فى المساكن الأولى فى مواجهة القدس .

و يمكننا اعتبار " منازل " جمع " منزلة " و إن كان النص يعنى فعلاً Houses or Rooms , و ذلك غذا أردنا تطبيق تعبير " منازل " على السكنى السعيدة فى الحياة الأبدية و مما يجدر به الذكر هنا أن تعبير " الْمَظَالِّ الأَبَدِيَّةِ " الوارد فى (لوقا 16 : 9) يعنى المسكن الأبدى , إذ كلمة مظلة تأتى فى اللغة اليونانية " سكيني " و منها جاءت الكلمات العربية سكن و مسكن و يسكن و هكذا . و عليه فإن المنازل الكثيرة التى أشار إليها السيد المسيح تعنى درجة الإستمتاع أو المكافأة و التى ستختلف من شخص إلى آخر . إذ لا يمكن القول بأنه ستكون هناك مكافأة واحدة لكل من معلمنا بولس الرسول أو القديس أنطونيوسو شخص بالكاد جاهد فخلص و التحق بالموكب , و فى إشارة أخرى من السيد المسيح إلى هذا التمايز , قال " مَنْ يَقْبَلُ نَبِيّاً بِاسْمِ نَبِيٍّ **فَأَجْرَ نَبِيٍّ** يَأْخُذُ وَمَنْ يَقْبَلُ بَارّاً بِاسْمِ بَارٍّ **فَأَجْرَ بَارٍّ** يَأْخُذُ وَمَنْ سَقَى أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ كَأْسَ مَاءٍ بَارِدٍ فَقَطْ بِاسْمِ تِلْمِيذٍ فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يُضِيعُ أَجْرَهُ». " (متى 10 : 41 - 42) .

و عندما أشار معلمنا بولس الرسول كذلك إلى مثل هذا الإختلاف , صرّح بأن " نَجْماً يَمْتَازُ عَنْ نَجْمٍ فِي الْمَجْدِ." (1 كو 15 : 41) و التعبير مستوحى من الفضاء الممتلىء بالنجوم , فبينما توجد نجوم عادية كثيرة يلمع بينها البعض و البعض الآخر يظهر أقرب من الباقين , و مع ذلك فهم جميعاً فى كبد السماء ينتمون إلى العلو , إن هذا يشبه الناجحين فى

امتحانات الثانوية العامة فإن الطالب الذى تفوق و حقق مئة فى المئة يوضع فى إطار واحد مع ذلك الذى حقق بالكاد درجة النجاح خمسون بالمئة , غير أن مكتب التنسيق سوف يقول كلمته ! و لن يلتحقوا معاً بكلية واحدة , إذ أن هناك ما اصطلح عليه بكليات القمة , و كذلك درجة الإمتياز التى يحصل عليها مجموعة من الدارسين فإنها تحتمل درجات متفاوتة فيما بين الحاصلين عليها .

هكذا فقد انضم إلى الكنيسة أناساً من كل نوع , بعضهم بأهداف رديئة و آخرين دون سبب معروف , و البعض بسبب الإضطهاد , و مع أن الجميع تضمّهم الكنيسة , إلاّ أن هناك تمايزاً بين فريق و آخر .

يقول القديس يوحنا الدرجى : " *و أناس خرجوا فى موكب الملك , و أناس دعاهم الملك , و أناس وجدوا موكب الملك فانضمّوا إليه . و العبرة بالنهاية* " .

هل هُناك مِن حَسَد أو غيرة ؟

إن ميل أو هوى مصل الحسد أو الغيرة أو الحقد , لن يكون لها وجود فى الحياة الأبدية , إذ أن مثل هذه الصفات مرتبطة بحياة الإنسان هنا , أما الطبيعة فستكون ملائكية , و كأنما كل شخص يمتلك إناءاً تتفق سعته مع القامة الروحية له , و على الرغم من أن هناك فرقاً بين اناء و آخر من حيث السعة , إلا أن جميع الأوانى ستكون ممتلئة , أى أن كل إنسان سيكون مكتفياً , و من هنا فقد لا تكون المقارنة ملّحة . و لنتخيل أب يجلس مع طفله الصغير إلى المائدة , فبينما يكف الطفل عن الطعام بعد دقائق معدودة يكون الأب ما يزال يلتهم كميات منه قبل أن يكفّ , ترى هل يمكن لذلك الصغير أن يحقد على أبيه أو يحسده بسبب شهيته أو قدرته على الإتيان على الطعام ! كلاّ .. لقد أخذ هو كفايته , و حسبه ذلك من المائدة . فهو لن يشعر بالعوز , و لن يرى أحداً أعلى منه أو أدنى منه , فإن المسيح يصير كفاية لكل منهم .

الملكوت : يُوهَب أم يُغتصَب ؟

إن جميع أتعاب الإنسان و جهاداته جميعاً لا توازى أة تساوى عطية الخلاص و هبة الملكوت , حتى و لو بلغت إلى التعذيب بل و إلى الموت , كما هو الحال فى الإستشهاد " لأَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذَلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ. لَيْسَ مِنْ أَعْمَالٍ كَيْلاَ يَفْتَخِرَ أَحَدٌ. " (أفسس 2 : 8 , 9) فقد وهب الله الملكوت للجميع منذ الأزل " تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ. " (متى 25 : 34) و ما على الإنسان بالتالى سوى أن يجاهد حتى لا يفقد هذا النصيب , تماماً مثلما يهب أب لكل من أولاده و بناته نصيباً من الميراث يضعه لهم فى البنك مثلاً , و ما عليهم إلاّ المحافظة على تلك العطية , حتى إذا ما تخرجوا كان لهم ما يبدأون به حياتهم العملية (الجديدة) , غير أن مسلك أولئك الوارثين قد يختلف من واحد إلى آخر , فبينما تمتد يد مسرفة إلى ذلك المخزون المعد فتستهلكه بسبب الإنحراف أو عدم الشعور بالمسئولية , هناك منهم فى المقابل من يقاوم كل إغراء و كل رغبة فى تبديد هذا النصيب , و لعل تعبير السيد المسيح فى حديثه عن يوحنا المعمدان " مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ وَالْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ. " (متى 11 : 12) يُقصد به أمران :

أولهما أن مقاومة كل إغراء و حروب لتبديد هذا النصيب , تعد فى الواقع " اغتصاباً " بالمنطق المعكوس , و ***ثانيهما*** أن الخاطىء الترابى يأخذ الملكوت و المجد و السكنى مع الله , على ذلك يعلق القديس جيروم فيقول " *أليس بالحق يحسب اغتصاباً عندما يرغب الجسد أن يصير إلهاً و يصعد إلى الموضع الذى سقطت منه الملائكة و يدين ملائكة ؟* "[5].

و عن إمكانية فقدان الإنسان لأبديته يقول موسى النبى عندما وقف شفيعاً لدى الله فى الشعب " وَالآنَ انْ غَفَرْتَ خَطِيَّتَهُمْ - وَالا فَامْحُنِي مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي كَتَبْتَ».فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مَنْ اخْطَأَ الَيَّ امْحُوهُ مِنْ كِتَابِي. " (خروج 32 : 32 , 33) و يتضح من هنا أن الأسماء مكتوبة منذ البدء فى الملكوت – سواء موسى أم الشعب – و لكنه من الممكن أن تُمحى , كذلك يشير الرب فى العهد الجديد إلى ذلك , عندما حكم على اليهود " إِنَّ

---

5 **المسيحى و العبور إلى السماء / القمص تادرس يعقوب / ص 207.**

مَلَكُوتَ اللَّهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. " (متى 21 : 43) و " وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَيَتَّكِئُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَأَمَّا بَنُو الْمَلَكُوتِ فَيُطْرَحُونَ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ." (متى 8 : 11 , 12) و يقول القديس يوحنا الرائى الحبيب " تَمَسَّكْ بِمَا عِنْدَكَ لِئَلَّا يَأْخُذَ أَحَدٌ إِكْلِيلَكَ. " (رؤيا 3 : 11) .

نار الأبدية

كما أن أعظم مكافأة للبار هى السكنى فى معيّة الله , هكذا و فى المقابل يعد الاقصاء عن هذه السكنى , أكبر عقوبة يمكن أن تلحق بالخاطىء . إذ ليس هناك – كما نعلم – مُعذبين و لا آلات تعذيب , و كما أن أى موضع يحل فيه الله يتحول إلى نور و بهجة و فرح غامر , هكذا الموضع الذى يخلو من الله بالتالى لا يوجد فيه ما يجعله محبوباً أو مرغوباً بالبقاء فيه .

و لنتخيل الآن طفلاً يحدث شغباً فى مسكنه , و لم تزل أمه تنهره فلا يسمع لهل , و تحذره فلا يأبه لتحذيرها بل يستمر فى شغبه و يتمادى , فيحطم بعض الأشياء ثم يبدأ فى ايذاء أخوته , و هنا تهدده بالطرد من المسكن إذا ما واصل عناده , فلا يلتفت إلى وعيدها فى الأذى و الإتلاف , و غذا بها تغضب و تمسكه من يده ثم تفتح الباب لتدفع بالطفل إلى الخارج ثم تغلق الباب . أمّا هو فما أن يجد نفسه خارج بيته حتى يبدأ فى الشعور بالوحدة الموحشة , ذلك بالطبع من دون أن يكون هناك بالخارج من يهينه أو يضربه , و لكنه الشعور بالضياع و الرفض , لا سيما و إن كان هناك بالداخل أصوات مرح و صُحبة و ولائم , فيحزن و يتّخذ أول درجة سلم ليجلس فوقها حاسر الوجه واضعاً إياه بين كلتا يديه !! .

و لكن ترى ما هى النار التى تحدث عنها السيد المسيح و أشار إليها مراراً ؟؟

أشير فى أكثر من موضع فى العهد الجديد إلى جهنم و النار الأبدية , بإعتبارها المقر النهائى للأشرار و العقوبة المناسبة لهم [6] , فالنار مثّلت الفناء الشامل مثلما هو الحال بالنسبة لسدوم و عمورة (تك 19) و هى تضطرم " كَالتَّنُّورِ " (مل 4 : 1) و " تُؤْكَلُ الأَرْضُ كُلُّهَا" (صفنيا 1 : 18) كما نُظر إلى النار بإعتبارها العقاب الحاسم سواء للأشخاص أو المقتنيات , و لكنه و فيما يتعلق بالدينونة فقد نُظر إليها على أنها القوة التى تختبر أعمال الناس فى يوم الحكم , إلى هذا يشير معلمنا بولس الرسول قائلاً " وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدُ يَبْنِي عَلَى هَذَا الأَسَاسِ ذَهَباً فِضَّةً حِجَارَةً كَرِيمَةً خَشَباً عُشْباً قَشّاً فَعَمَلُ كُلِّ وَاحِدٍ سَيَصِيرُ ظَاهِراً لأَنَّ الْيَوْمَ سَيُبَيِّنُهُ. لأَنَّهُ بِنَارٍ يُسْتَعْلَنُ وَسَتَمْتَحِنُ النَّارُ عَمَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مَا هُوَ . إِنْ بَقِيَ عَمَلُ أَحَدٍ قَدْ بَنَاهُ عَلَيْهِ فَسَيَأْخُذُ أُجْرَةً. " (1 كو 3 : 12 - 14) .

و هكذا فهذه النار أيضاً هى التى تحرق الزوان المشار إليه فى مثل الزرع الجيد و الزوان (متى 13) و كذلك الأغصان التى تُفصل عن الكرمة (يوحنا 15 : 6) .

و أما الصورة التى رسمها الرب يسوع لهذه النهاية فهى فى الواقع مستقاة من البيئة , و لنعد مرة أخرى إلى التقليدين الكتابى و الربانى ثم التلمود , فقد استخدم السيد المسيح فى تعليمه قصصاً و أسماءاً من البيئة اليهودية نفسها ليسهل على السامعين استيعاب دروسه , فحوادث القتل و النهب على طريق أورشليم / أريحا كانت حقيقية (ذكرها فى مثل السامرى) و الفريسى و العشار , و الغنى و لعازر , و قاضى الظلم و وكيل الظلم , صديق نصف الليل , و الولائم و غيرها , جميعها كانت صوراً مألوفة فى اليهودية , و أما بالنسبة لجهنم , فقد كانت عبارة عن وادى سحيق , أشير إليه أولاً فى (لاويين 18 : 12) حيث الطقوس المفعمة بالنجاسة لإرتباطه بعبادة مولك (أوكموش) راجع أيضاً (2 مل 16 : 3 , 21 : 6 , إرميا 7 : 31 , 19 : 5 , 6) و أما شهرة هذا المكان فقد ارتبطت بآحاز الملك و الذى مارس فيه عبادة الإله مولك و الذى كانت تقدم له الأطفال كذبائح فى النار (2 مل 28 : 3) [7] . و قد قام يوشيا الملك الصالح بوقف تلك العبادة و

---

6 يجب أن نفهم من مثل الغنى و لعازر (لوقا 16) صورة الحياة هنا أكثر مما نرى فيها صورة الحياة هناك , فهى و بينما تمثل الفارق هنا , لا تمثل النتيجة إلاّ من خلال عكس الوضع و عدم قدرة أحد الفريقين على التعامل مع الآخر .

7 كانت عبادة مولك من الممارسات البشعة , فقد كان لذلك الإله تمثالاً من النحاس الأحمر المجوف من الداخل , و يتخذ شكل آدمى جالساً و له رأس حيوان بينما يداه مبسوطتان إلى قدام , ثم يحمى بالنار حتى يتوهج و عندئذ يوضع الطفل المقدم كذبيحة على ذراعيه فيحترق وسط صراخ و رقص هستيرى من الجماعة حيث يختفى فيه صوت صراخ الضحية .

حول المكان إلى موضع تلقى فيه النفايات حيت تُحرق , و صار وادى هنوم رمزاً للنجاسة و الدمار .

و فيه أيضاً ألقيت الأصنام التى صنعها ملوك إسرائيل و يهوذا الأشرار , و كان الوادى يقع جنوب أورشليم , و بما أن الهيكل مقام فى الجهة الشرقية للوادى فإن بقايا الذبائح و تلك الأجزاء التى لا تصلح لأى نوع من التقدمات أو الأكل , كانت تلقى فيه , و لنا أن نتخيل فى موسم مثل الفصح , كم كان يلقى فيه , فقد كانت تقدم فى مثل هذا الأسبوع ما يقرب من 560 ألف ذبيحة !! و كل ما لا يصلح لأن يقدم فى الشرق (لله) كان يلقى فى الغرب (للهلاك) و لما كانت أكداساً هائلة مثل هذه تلقى هناك فقد كان يتولد منها كميات هائلة من الدود و يقال أن بعض أنواع ذلك الدود كان من الصعب القضاء عليها , و عندما تشعل النار فى تلك البقايا كان يصدر عنها دخاناً اسوداً كثيفاً , فكان المنظر بكامله يثير الرعب فى من يشاهده , فهوذا نار مستعرة لا تطفأ (إذ لا يتوقف القاء النفايات فيها) و دود لا يموت . إلى ذلك أشار أيضاً كل من يهوديت إذ قالت عن الأشرار أن الله يجعل لحومهم للنار و الدود (يهوديت 16 : 21) و كذلك يشوع بن سيراخ و الذى يقول عن المنافقين أنهم يسلمون للنار الباطنية و الدود (سيراخ 7 : 19) . و أما عن مصطلح " جهنم " ذاته فهو يأتى من كلمتين الأول " جه أو جوه " و تعنى فى العبرية " وادى " و الآخرى " هنوم " و هذا هو اسم الوادى ذاته , و هكذا تعنى الكلمة " وادى هنوم " أو " جه هنوم " جهنم .

إذن فهذه الصورة المألوفة لدى سامعيه , أراد المخلص من خلالها أن يقرب لأذهانهم فكرة العقوبة و الرفض , و لكن و مما لا شك فيه أن النار الأبدية ليست ناراً ذى طبيعة مادية بالضرورة , و إلا لزم الأمر أن تكون الأجساد فى الحياة الآتية أجساداً مادية لحمية , غير أنها ليست كذلك , و ما تلك النار سوى الآلام النفسية و الحسرة و الشعور بالرفض [8] .

8 كان الجحيم فى الفكر اليهودى يشير إلى مقر كل من الأحياء و الأموات , و لكن الفكرة تطورت بشىء من الوضوح بعد ذلك حيث أصبح الجحيم يشير إلى حالة البعد عن الله و الآلام التى يسببها , ثم صوّر الأدب الرؤيوى اليهودى حالة الأشرار مطروحين فى الهاوية مع الملائكة الأردياء , بينما يقيم الأبرار مع ابراهيم و اسحق و يعقوب فى فردوس النعيم يشاركونهم وليمة فى انتظار يوم القيامة , إذا فقد أدرك اليهود أن هناك بدء سعادة للأبرار عقب الموت و بدء عذاب يلحق بالأشرار كذلك , و قد ظهر هذا الأدب الرؤيوى فى (كتاب أخنوخ) . راجع كوستى بندلى / أمثال الملكوت / ص 91 , 92.

التفاوت فى العقاب

كما أنه يوجد فى الملكوت درجات يوجد فى العذاب كذلك درجات , و بنفس الكيفية , فإن سكان النار لن تكون لديهم حتى الفرصة للمقارنة , فإن الآلام و العذابات ذاتها سوف تغشى كل أفكارهم و مشاعرهم , يقول السيد المسيح عن سدوم و عمورة أنه ستكون لهما " حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً " (فى العقاب) من تلك المدن التى سمعت الكرازة بالملكوت و لم تقبلها (لوقا 10 : 12) و فى التراث النسكى نقرأ عن أحد الآباء , كيفأن الشياطين الأردياء حاولوا أن يبثوا فيه روح اليأس , قائلين أن جهاده كله كلا شىء و أنه ماض لا محالة إلى العذاب , فليرحم ذاته من أتعابه , و لكنه أجابهم : " *و ما شأنكم أنتم , فإنه و إن كنت سأمضى إلى العذاب , فإننى سأكون تحت كل الخليقة , و لكن فوقكم أنتم* " . جدير بالذكر أن النار الأبدية معدة أصلاً لإبليس و جنوده , و بالتالى فهم سكانها الأصليون ! .

هل يتنافى ذلك مع محبة الله و رافته ؟

كلاّ بالطبع , فإن شرور الخاطىء و عدم توبته هى التى تقوده كما قلنا سابقاً إلى ذلك المصير , و كما تدخل جميع المواد إلى النار فتختبر جميعاً هكذا القانون الذى وضعه الله : " إِنْ شِئْتُمْ وَسَمِعْتُمْ تَأْكُلُونَ خَيْرَ الأَرْضِ .وَإِنْ أَبَيْتُمْ وَتَمَرَّدْتُمْ تُؤْكَلُونَ بِالسَّيْفِ». لأَنَّ فَمَ الرَّبِّ تَكَلَّمَ. " (أشعياء 1 : 19 , 20) ثم هل يحسب عدلاً أن يساوى الله بين شخص جاهد طوال حياته و ربما بذل دمه من أجل المسيح و شخص آخر عاش فى الخطية مستخفاً بكل قانون و وصية و ربما سبّب لكثيرين الأذى ! . إن الذى يتنافى مع طبيعة الله كمحب هو أن يُهلك باراً !! أو ينتقم من صالح ..

لقد التمس الله للإنسان مخرجاً من حكم الموت الذى وقع عليه من جراء الخطية و مات عنه و ترك له الوصايا فى الكتب المقدسة و التحذيرات و وهبه سبل الخلاص و أعطاه نفسه طعاماً روحياً من خلال الإفخارستيا , ثم يقف الله ليتساءل " احْكُمُوا بَيْنِي وَبَيْنَ كَرْمِي ..... مَاذَا يُصْنَعُ أَيْضاً لِكَرْمِي وَأَنَا لَمْ أَصْنَعْهُ لَهُ؟ " (أشعياء 5 : 1 - 7) حيث

يعنى هذا التساؤل الأخير أن جزاء الأشرار سيكون عادلاً إزاء أعمالهم و رفضهم كل ما قدمه الله لهم .

هذا و قد أعطى أحد الوعاظ تصوراً فى هذا الأطار فقال :

لنتخيل أن جميع الذين سيموتون اليوم وُهبوا من الله – بشكل خاص – أن يدخلوا الفردوس بمن فيهم الأشرار , و حدث أن مات أحد خؤلاء الأشرار نتيجة انفعال طارىء أثناء متابعته لمباراة فى الكرة , و بموجب هذا الغرض سوف يدخل الفردوس .. غير أنه لن يجد هناك ما اعتاد عليه .. فقد يجد التسبيح و الصلاة و الجو المشحون بالقداسة و البر .. و بالتالى سيجد نفسه غريباً عن المكان . و ربما طلب أن يمضى إلى الجحيم ليتقابل مع من يعرفهم و عاش بينهم !! أنه لن يتعرف على الشهداء و القديسين , بينما سيتعرف بسهولة على اللصوص و الأشرار و القتلة .. لقد طلبت الشياطين من السيد المسيح أن يسمح لها بالدخول فى الخنازير , و ألحت فى الطلب لتجد راحتها فيها , و كانت تشعر بالعذاب و هى أمام المسيح (لوقا 8 : 36 - 39) هكذا يطلب الأشرار الإختفاء من وجه المسيح و لن يحتملوا نوره , و يقولون " يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ: اسْقُطِي عَلَيْنَا وَلِلآكَامِ: غَطِّينَا." (لوقا 23 : 30)

مَذاقة الملكوت عَلى الأرض

الحقيقة أن التخويف و التهديد لا يكفى للتوبة , و ربما تسببت كثرة الحديث عن العذاب و الإنتقام و الموقف الرهيب فى الدينونة إلى نوع من اللامبالاة مع الوقت و ربما العناد و التحدى , و ربما الإعتياد على ذلك الحديث ليصبح غير ذى جدوى . و من الأفضل السعى فى جعل الحياة الأبدية ممتدة إلى هذا العالم ! لا ننظر إليها بإعتبارها حياة قادمة فقط , فمتى شبع الإنسان بالمسيح من خلال جسده و دمه و كلمته و عمل الخير و حب الصلاح , أفقده ذلك الشهية لأى خطية و عمل شرير و هو ما يمكن أن نسميه بـــ " **الجهاد الإيجابى** "

إن الموت لا يفصل بين حياة و حياة , و لكنه نقطة باهته على الخط الذى يربط بين الزمنى و اللانهائى , أنها حياة واحدة متصلة , و الله هو الهدف المشترك بين الحياتين , فإن لم يكن

الله هو مصدر الراحة و الفرح هنا و هناك , فإن الشر و الشيطان هما القاسم المشترك بين الحياة الشريرة هنا و النار الأبدية الآتية بلا ريب .

و عندما يستعد انسان للسفر إلى بلد آخر يستقر فيه , فإنه يسأل عن أحواله و لغته و طقسه و طبائع سكانه مع عاداتهم و تقاليدهم , و من هنا فإنه يقرأ عنه كثيراً و يحاول التقابل مع كثيرين من سكان ذلك المكان و هو مايزال فى بلده , ثم يفحص خريطته . إلى غير ذلك من الإجراءات التى تسّهل عليه ذلك و تجعله أهلاً للسكنى هناك .

لقد كان أول انفتاح للسماء على الأرض فى العهد الجديد , هو تسبحة الملائكة الذين ظهروا عند ميلاد السيد المسيح قائلين " المجد لله فى الأعالى و على الأرض السلام و بالناس المسرة " كما أن حادثة التجلى لم تكن سوى انفتاح – لدقائق – على الملكوت لأناس يحتاجون إلى تعزية و تشجيع , ذلك قبل أن يدخلوا فى معصرة الآلام و الشكوك و الإضطهادات , ثم انفتاحها أما اسطفانوس الشهيد ليرى ابن الإنسان جالساً عن يمين العظمة , و هكذا الرؤى الروحية و الأحلام التى يسمح بها الله لبعض من أولاده كقبس من ذلك الثور الأسنى , كعربون للمجد الآتى و لتخرج به قليلاً من دائرة الحياة الفانية إلى تلك الباقية البهيّة .

لقد عاش الآباء حياتهم كلها و هم يفكرون بهذا الأمر يجاهدون بفرح ثم يزدادون جهاداً و يبحثون عن الأتعاب حتى يصبح لهم الجهاد لذة , يتحسبون ليوم خروج الروح من الجسد و ليوم الدينونة و للنطق بالحكم , و يُسبون بالمجد الأبدى فتنحل عنهم روابط هذا الجسد و هذه الحياة , و نسبح فى كل ليلة قائلين " طوبى للإنسان الذى ترك عنه هذا العمر و اهتماماته المملوءة تعباً ... و يلصق قلبه و عقله باسم الخلاص الذى لربنا يسوع المسيح " (ابصالية الجمعة) .

قال القديس مقاريوس :

" طول الروح هو الصبر . و الصبر هو الغلبة . و الغلبة هى الحياة . و الحياة هى الملكوت . و الملكوت هو الله "

الإفخارستيا عَربون الحياة الأبدية

بعد أن أكل من شجرة معرفة الخير و الشر , طُرد آدم من الفردوس لئلا يأكل من شجرة الحياة فيحيا إلى الأبد فى خطيئته , فما أن أتى ابن الله و افتداه حتى صار مسموحاً له بالأكل منها , و ما هذه الشجرة إلاّ جسد الرب و دمه الأقدسين , فالسيد المسيح هو شجرة الحياة التى لا يموت آكلوها " شجرة الحياة عديمة الموت " (ابصالية الإثنين) و فى تذاكية يوم الخميس , و بعد الحديث عن اللعنة التى أصابتنا بالسقوط , ثم فتح باب الفردوس بعد الفداء يقول " استحققنا شجرة الحياة لنأكل منها أى جسد الله و دمه الحقيقيين " .

و بالفناء عاد الإنسان إلى رتبته و من ثم وهب أن يأكل من هذه الشجرة كعربون للحياة الأبدية " مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ " (يوحنا 6 : 54) و فى هذا يقول القديس كيرلس الكبير : " *إن الفصح هو العبور من الموت إلى الحياة , و المسيح فصحنا الجديد هو الخبز الحقيقى الذى يهب الحياة الأبدية و يحررنا من رباطات الموت* " [9] .

و عندما صرّح السيد المسيح بأن " مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ. " (يوحنا 6 : 56) كان بذلك ينبهّنا إلى أن الإفخارستيا تهبنا من صفات الله و مواهبه و منها الخلود و عدم الفساد إذ بالإتحاد من خلال التناول تنتقل هذه الصفات إلينا .

يحكى عن شخص يدعى بطرس , كان مرابياً بخيلاً محباً للمال , و فى ذات يوم و بينما كان عائداً إلى مسكنه بعد تحصيل بعض الديون , لمحه أحد المتسولين يحمل فى يده رغيف خبز , فتبعه آملاً أن يحصل على شىء منه , و راح يستعطفه بينما بطرس ينهره , و لما ألحّ عليه أغلظ له بطرس فى القول و راح يطرده , و لكن المسكين تبعه فى إصرار الجائع – حتى باب بيته فما كان منه إلاّ أن ألقى فى وجهه بقطعه من الخبز حتى يتخلص منه, فألتقطها المسكين و أكلها فى كثير من البؤس .

---

9 الإفخارستيا عند القديس كيرلس الكبير / مركز الدراسات الآباء .

و أما بطرس فقد مضى من توه إلى خزانة المال و أطمئن إلى الأكداس التى فيها , و بعد ذلك ازدرد بقية الخبزة قبل أن يأوى إلى فراشه , و ما هى إلاّ ساعات قليلة حتى وجد ذاته أمام مائدة عظيمة يجلس إليها قوم فى كامل البهاء و المجد .
كان كلّ منهم يجلس فى كرسيه و قدامه لوحة صغيرة مدون عليه اسمه . فأشار بطرس إلى أحد الملائكة الواقفين هناك مستفسراً عما إذا كان له مكان بين هؤلاء ؟ , فأكد له الملاك ذلك , ثم اقتاده بلطف إلى أحد الكراسى حيث كان مدوناً إسمه قدامه على اللوحة .

و لم يكن الإحتفال قد بدأ بعد , و كان كل من الجالسين أمامه طبق مغطى بآخر , فلما حان الوقت رُفعت الأطباق و إذا بكثير من الخيرات و ألوان الطعام الشهية فى الأطباق , فلما رفع بطرس الطبق وجد تحته لقمة صغيرة من الخبز , فأشاح بيده إلى الملاك مستنكراً بعجرفة , فأجاب الملاك برقة و هدوء متسائلاً : ألا تعرف هذه ؟ فأجاب : كلا ,
فقال له الملاك : حاول أن تتذكرها , و هنا تهاوى بطرس فى مقعده قائلاً بصوت كسير و كسيف (و كأنه يحدث نفسه) الآن أتذكرها جيداً , إنها كسرة الخبز التى ألقيت فى وجه ذلك المسكين ليلة البارحة لأتخلص من إلحاحه [10] .

و استيقظ بطرس مذعوراً و هو يتصبب عرقاً , ثم قاد على الفور و كأنه مسبى فمزق صكوك الديون المستحقة له , ثم وزّع أمواله , و هو يقول : لو كنت أعطيت لك الخبزة كاملة لوجدتها فى ذلك الطبق فما بالى إن أعطيت كل مالى و نفسى لله .. فوزع ماله و لم يكتف بذلك بل باع نفسه كعبد , و لما عرف سيده قصته و تأثر بفضائله أعتقه , فاتجه إلى برية القديس مقاريوس و ترهب هناك , و أينما حل كان يشيع الفرح و التعزية , و تعيد له الكنيسة فى 25 طوبة من كل عام .

10 يرد فى رواية أخرى أنه عند الدينونة (فى الحلم) وجد أكداساً من الخطايا توضع فى كفة الميزان اليسرى بينما لم يجد الملائكة ما يضعونه فى الكفة اليمنى سوى كسرة الخبز المشار إليه .

أخيراً

لكى تطمئن على مسيرتك , تأكد بين آن و آخر من هذه الثلاث :

1. ألاّ تكون متعلقاً بشخص ما أو شيء ما , أكثر من المسيح أو بدلاً منه , بل ليكن الله أولاً و دائماً .
2. ألاّ تكون مغلوباً من شهوة ما أو مهزوماً من خطية ما , و كأنها قيد يجذبك إلى الخلف و يعطلّ مسيرتك .
3. أن تكون عينيك مفتوحة على الأبدية , و أن تكون هذه الأبدية هدفاً أمامك فى الأفق تسعى لتحقيقه .

يقول القديس أغسطينوس

" إن اعتقدنا أن الله كائن فى الجزء العلوى من العالم , فستكون الطيور أفضل منا لأنها تحيا بالقرب منه , غير أنه لم يكتب أن الرب قريب من طول القامة أو سكان الجبال , بل قريب هو الرب من منسحقى القلوب "